قسطاكى الحمصى

أسلوبه فى الكتابة النثرية

للأستاذ أسعد الكورانى

ليس الكلام فى أدب الأستاذ قسطاكي بك الحمصى بالأمر السهل ولا هو بالمطلب اليسير ، فالخطباء كثيرون والوقت محدود وأدب المحتفى به، أطال الله بقاءه، متشعب النواحى فليس في طوق خطيب أن يلم به فى دقائق معدودة . لذلك سأقصر كلمتى على أسلوب الأستاذ فى الكتابة النثرية .

يقولون إن أسلوب الرجل صورة عن نفسه . وليس أصدق من هذا القول فى التعبير عن الأدب الصحيح . فالأدب مظهر لما تختلج به النفس وتشعر به وتدركه عن طريق العاطفة والعقل . والأديب يؤدى رسالته وقد أذاب مارآه وأحس به فى بوتقة نفسه، فلا بد من أن يجىء أسلوبه قطعة من ذاته .

كل من قرأ للأستاذ قسطاكى بك الحمصى ماخطه يراعه منذ ستين عاما إلى هـذا اليوم يرى فى كتابته النثرية قوة فى اللغة وصحة بالغة فى التركيب والتعبير . وهـذه صفات تكفى وحدها لتخليد صاحبها ، وقلّ أن اجتمعت فى نجوم نهضتنا الأدبية الحديثة إلا لأفراد معدودين. ولكنه يجد إلى جانب هذه الصفات صفة أخرى ينفرد بهـا الأستاذ بين أقرانه ، ويندر من يشايعه فيهـا من أترابه وأنداده ، وهى التأنق فى الأسلوب. فكأنى بالأستاذ لا يرضى من قلمه أن يأتيه بالناصع الشرق من صحيح الكلام وبليغه، بل يريد إلى جانب ذلك أن يكون بيانه عنوانا للروعة والجمال . فهو كالنحات الماهر يستخرج من الصخر الجامد ما يهز الشعور بحسنه وجماله .

ولقد قرأت ما كتبه الأستاذ فى شبابه وكهولته وشيخوخته فما شذ أسلوبه عن هذه الصفة فى أى دور من أدوار حياته .

نعم قد يختلف أسلوبه قوة وجمالا فى بعض ما كتب عن بعض؛ ولكن طبيعة التأنق كانت بادية على كل آثاره .

ولقـد تشرفت يوما بزيارته ومعى صديقى الأديب جورج اسطنبولية فسمعت من حديثه العذب الفياض، ورأيت من مليسه وهندامه، وشاهدت فى حجرته وعلى منضدته من الأثاث والكتب ما زادنى يقيناً بأن أسلوب الأستاذ كبيانه صورة صادقة لسلامة الذوق وروائع الفن .

وسأل لا أطيل عليكم إذا تلوت على مسامعكم قطعة من بيانه لم أخترها اختياراً ، بل اطلعت عليها اتفاقا عند ما فتحت كتابه الذى وضعه عن (أدباء حلب ذوى الأثر فى القرن التاسع عشر) وهى من محاضرة له فى وصف قصور الخليفة المأمون وهذه هى :

« وكان يشرف عليها الراكب فى دجلة من بعد شاسع ، ولا سيما قبالتهـا ، فمن مجصص بالجص الأبيض الناصع كالفضة البارقة ، ومن مطلى نصفه السفلى بالأخضر الناضر والنصف العلوى بالذهب النضار ، وفوقها جامات الذهب تتلامع كالشهب المتقدة ، ثم تبـدو للعيون تلك الحدائق الممتدة إلى أقصى مدى البصر ، تنسرب فيها جداول الماء من برك عظيمة الاتساع مختلفة الأوضاع ، ينصب فيها الماء كالفضة الذائبة من أفواه حيتان أو سباع أو ثيران أو نسور ، من مرمر مختلف الألوان بالغ من الصناعة نهـاية الاتقان بين جنات قد ازدهت غياضهـا واشتبكت أشجارها وتعانقت أغصانها وامتد ظلالها ، يسير فيها الداخل تحت أقبية وأطواق من فسيفساء الأوراق ، فى بساط كأنما أرضها خمائل سندسية ، وعلى جانبيها دوارزينات لا يدرك الطرف منتهاها ، قد اعترش عليهـا الياسمين، وتعلق بها الورد والنسرين »

فهذه قطعة كتبها الأستاذ منذ عهد بعيد ، وهى مشرقة الديباجة ناصعة البيان صحيحة اللغة سليمة التركيب لا تقع كثيرا على أشباهها فى متخير كلام العرب فى الوصف الجميل .

غير أن هذه القطعة لا تمتاز بالكلام البليغ والأسلوب الصحيح فحسب، بل تمتاز أيضا بما فيها من التأنق والعمل الفنى الخالص .

فما هى العوامل التى اجتمعت فأشرق منها هذا الأسلوب الوضاح؟

عندى لهذه العوامل أصلان : الموهبة والمحيط .

فالموهبة هي القدرة الطبيعية التى تتجلى فى ذوى الكفايات الممتازة .

والمحيط هو الوسط الذى يعيش فيه الانسان فيتأثر به .

« نص الخطاب الذى ألقاه الأستاذ المحامي في الحفلة التى أقيمت بحلب فى سبتمبر تكريما للاستاذ قسطاكى بك الحمصى »

والموهبة لا تثمر ثمرها إذا لم تتعهدها يد التهذيب بالاصلاح . وهي تتكيف بالمحيط ومؤثراته .

ولا خلاف فى أن العلامة الحصى من ذوى المواهب الممتازة النادرة ؛ فما هو الوسط الذى عاش فيه فأخذ عنه وانطبع بطابعه فصدر عنه هذا الأسلوب المشرق ؟

ينتسب الأستاذ إلى أسرتين عريقتين فى الوجاهة والحسب والنسب ، فأبوه من آل الحصى وأمه من آل الدلال . والأسرتان مشهورتان بالحياة الرفيعة والعيش الرغيد الوارف . وأسرة الدلال معروفة بالأدب، وقد ظهر منها نوابغ لا تزال آثارهم الأدبية ناطقة بفضلهم ومكانتهم . ولقد كان لأم الأستاذ وقوف على الأدب وخاصة على الشعر . فنشأ فى هذا المحيط العالى تتعهده أمه — بعد أن فقد أباه وهو فى الخامسة من عمره — بخير أنواع التربية والتهذيب .

ومن صفات الأسر العريقة فى الوجاهة المحافظة على التقاليد والعادات . فمن الطبيعى إذن أن تبدو مظاهر هذه الحياة العالية بنعيمها وأخلاقها وتقاليدها على أدب الأستاذ؛ وهذا فى اعتقادى هو السبب المهم فى اتسام أسلوبه بسمة التأنق وروعة البيان .

على أنه يجب ألا تفوتنا ونحن نتكلم عن نثر الأستاذ ظاهرة لها قيمتها فى تقدير مكانته الأدبية . وهى أننا لو أخذنا أية قطعة من نثره كتبها قبل أربعين أو خمسين عاماً ، ولا سيما ما كان منها دائراً حول الموضوعات الاجتماعية والتاريخية ، ثم قارناها بما يكتب اليوم بعد أن أثمرت النهضة الأدبية الحديثة ثمارها لما رأينا بينهما كبير فرق . فكأننا نقرأ بلغة اليوم ما كتبه الأستاذ قبل نصف قرن يوم ، كانت أساليب الكتابة ترسف فى قيود الركاكة والتقليد والصناعة اللفظية

واسمحوا لى — وإن أطلت الكلام قليلا — أن أتلو على مسامعكم أسطراً من مقال نشره الأستاذ بعنوان (أدباء التقادير وأرباب السعى والتدبير) فى الجزء الثالث عشر من مجلة البيان الصادر فى أول إيلول سنة ١٩١٧ أى قبل إحدى وأربعين سنة وهذه هى :

« قد ألف بعض الناس الاتكال على التقادير أى على ما تولده الليالى من الحوادث التى لم تكن فى الحسبان . وخالفهم فى ذلك أقوام زعموا أن ذلك مدرجة إلى الكسل ، وأنه مما يقف فى سبيل التقدم وبلوغ الكمالات الانسانية . ولكل من الفريقين حجج وبينات يؤيدون بها مدعاهم »

« قال الفريق الأول: لو لم تكن التقادير هى الحاكمة فى أنصبة البشر، اللاعبة بحظوظهم، الفاعلة فى تغيير أحوالهم وأخلاقهم، لبلغ كل امرئ ما يتمنى على قدر همته وسعيه ، وكم من ساع وراء أمر يرومه والتقادير تعانده فلا يبلغ متمناه »

فهذا كلام لو قورن بأسلوب الكتابة فى هذه الأيام لما تخلف عنه فى كثير ولا قليل، بل ربما فاق أسلوب الكثير من مشهورى الكتاب بصحة اللغة وحسن السبك ومتانة التركيب .

وهذه الظاهرة من خير الشواهد على نبوغ الأستاذ ، لأن النابغة يتخطى حدود زمانه ويدرك ما لا يدركه معاصروه إلا بعد أمد طويل .

هذه كلمتى فى أسلوب أستاذنا قسطاكى بك الحمصى فى الكتابة النثرية ، وأنا أعلم ما فيها من عجز وقصور عن إدراك شأوه وبلوغ مداه ، وإيفاء البحث حقه من الدرس والتمحيص، ولكن أنى لمثلى أن يسابق فى هذه الحلبة ويجرى فى هذا المضمار وقد اجتمع فيه عيون الأدب ومصطفى رجاله لتكريم إمام من أئمة البيان . غير أن لى من حسن نيتى شفيعاً لقصورى، فليتفضل الأستاذ بقبول هذه الكلمات منى هدية مقرونة بالاعجاب بأدبه والدعاء له بطول البقاء

معهد التناسليات
معهد التناسليات تأسيس الدكتور ماجنوس لهيرشفلد فرع القاهرة بعمارة روفيه رقم ٤٦ شارع المدابغ خليفون ٥٢٥٠١ يعالج جميع الاضطرابات والأمراض والشذوذ التناسلية والعقم عند الرجال والنساء وتجديد الشباب والشيخوخة المبكرة . ويعالج بصفة خاصة : زيادة الباسة طبقاً لأحدث الطرق العلمية والعيادة من ١٠-١ ومن ٤-٦ . ملاحظة : يمكن إعطاء نصائح بالمراسلة للمقيمين بعيداً عن القاهرة بعد أخذ تحرير على مجموعة الأسئلة الخاصة بكيفية المعاينة على ١٤١ سؤالاً التى يمكن الحصول عليها نظير ٥ قروش